التضمين النحوي صوره وأغراضه

الاستاذ: الزيتوني عبد الغني
جامعة أمحمد بوقرة – بومرداس

تقديم:

تّعد ظاهرة التضمين من أهم مفاتيح اللغة العربية، وسر من أسرارها، فيها من الإيمان والتلويح ماليس في المكاشفة والتصّريح، وذلك أحلى وأعذب، وهي من بين المسائل التي كانت وراء حيرة النحاة القدماء التي استعانوا بها كوسيلة لتوسيع خروج بعض النماذج عن مقاييس اللغة العربية كثيرة الشيوع، في محاولة لإلحاقها بها، لتنتظم القاعدة وتطّرد، وعللوا الكثير من المسائل في ضوئها، فحصل تباين في وجهات نظر العلماء في هذه الظاهرة قديماً وحديثاً، حتى ليَكاد الباحث يلمس الاضطراب والتناقض أحياناً بين علماء المذهب الواحد.

ولم يقتصر النحاة وحدهم في الحديث عن هذا الموضوع، فقد أطلق هذا المصطلح على عدد من علوم اللغة العربية (النحو، البلاغة، علم القافية وعلم الأصوات)، لكننا سنركز على التضمين النحوي وصوّره وأغراضه.

أولا: مفهوم التضمين النحوي

أما في الاصطلاح النحوي فقد أشار إليه "سيبويه إمام النحاة قاطبة"، لكنّه لم يصرّح به، حيث يقول: "ودعوته زيداً، إذا أردت (دعوته) التي تجري مجرى سمّيته، وإن عنيت الدعاء إلى أمرٍ لم يجاوز مفعولاً واحدً" (1)، فقد نبّه في هذا المثال إلى "تضمين الفعل(دعا)" دلالة الفعل (سمّى)، فيتعدّى تعديّتة.

فسيبويه في هذا المثال، وإن لم يذكر مصطلح التضمين بصريح لفظه، إلاّ أنّه واضح من لازم معناه، وقد ذكر مثل هذا في بعض الأبواب من كتابه، منها « باب الفاعل يتعداه فعله إلى مفعولين »

كما أورد المبرّد أمثلة مشابهة لسيبويه، إذ يقول: « كما تقول: نبّأتُ زيداً، ونبأت عن زيد، فيكون (نبأت زيدا) مثل (أعلمت زيداً) ونبأت عن زيد مثل خبرتُ عن زيد (2)، وفي

هذا تنبيه إلى أنّ الفعل (نبّأ) يستعمل متعديا إلى المفعول به، كما يتعدّى بالحرف، وأنّ الفعل (نبّأ) تضمّن معنى (أعلم) في حالة التعدية إلى المفعول به، وتضمّن معنى (خبّر) في الحالة الأخرى، أي حين تعدّيه بحرف الجر (عن).

فهاتان الإشارتان من هذين العلمين الجليلين هما النواة الأولى لظهور هذا المصطلح، الذي تعرّض له معظم النحويين بالتعريف والتمثيل، بداية بابن جنّي، من خلال الأمثلة التي أوردها في كتابه «الخصائص»، إذ يقول: « اعلم أنّ الفعل إذ كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدّى بحرف، والآخر بآخر، فإنّ العرب قد تتوسّع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه، إيذانًا بأنّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه، وذلك كقول الله عزّ اسمه ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ** ﴾ [3]، وأنت لا تقول رفثت إلى المرأة، وإنّما تقول: رفثت بها، أو معها، لكنّه لمّا كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدّي أفضت بـ "إلى" كقولك أفضيت إلى المرأة، جئت بـ "إلى" مع الرفث إيذانًا وإشعارًا أنّه في معناه » [4]

فمن خلال هذا النص يتّضح أنّ ابن جنّي لم يصرّح بلفظ التضمين بدليل قوله: « فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه»، وهذا الذي عبّر عنه الكوفيون بمصطلح الإنابة ومن بين التعاريف التي تلفت نظر الباحثين بعد ابن جني تعريف الجرجاني فهو يعرّفه بقوله: «أن يقصد بلفظ معناه الحقيقي، ويلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه، ويدل عليه بذكر شيء من متعلقاته» [5] أما ابن هشام فيعرّفه بقوله «قد يشربون لفظًا معنى لفظ فيعطونه حكمه، ويسمّى ذلك تضمينًا »[6]، منتقلا بالمصطلح من دائرة الأفعال التي تفهم من خلال كلام الزمخشري إلى دائرة أوسع، وذلك باستبدال صيغة (فعل) بصيغة أخرى جامعة لكل أنواع الكلمة ولتنتقل إلى تعريف آخر لا يقل أهمية عن التعاريف السابقة، يقول الزركشي: «هو إعطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء، وفي الأفعال وفي الحروف»[7]، وقد ارتضى السيوطي هذا التعريف ونقله في كتابه «الأشباه والنظائر» من دون تغيير. [8]

ويعد تعريف الصبّان الآتي الذكر من أقدم الأقوال التي وقفت عليها، والتي يتطرق فيها صاحبها إلى ظاهرة التعدّي واللزوم حين يعرّفه بقوله: «إلحاق مادّة بأخرى في التعدّي واللزوم لتناسب بينهما في المعنى أو اتحاد »[9]

أمّا تعريفات المحدثين لهذه الظاهرة، فتكاد تكون مبنية على تعريف الصبّان السابق الذكر، فقد عرّفه إبراهيم السامرائي: «التضمين أن تستعمل مادة، فعلاً كان أو اسمًا أو أداةً محل غيره مع قرينة قولية، أو حالية تشير إلى المعنى الذي

استعمل»[10]، أمّا صاحب التحفة النظامية فقد فضّل لفظ الإشراب حين تعريفه للتضمين بقوله: «إشراب كلمة معنى كلمة، لتفيد معنيين، أحدهما: بلفظها، والآخر، بتعديتها بحرف مناسب للفعل المضمّن»[11]

في حين يذهب ابن كمال باشا في رسالته الخاصة بالتضمين إلى أنّ «التضمين أن يقصد بلفظ معناه الحقيقي ويلاحظ معه معنى لفظ آخر يناسبه، ويدل عليه، بذكر شيء من متعلقات الآخر»[12]

كما عرّفه مجمع اللغة العربية بالقاهرة بـ «أن يؤدي فعل أو ما في معناه، في التعبير مؤدى فعل آخر أو ما في معناه، فيعطي حكمه في التعدية واللزوم» [13]

أمّا صاحب التحفة النظامية فقد فضّل لفظ "الإشراب" عند تعريفه للتضمين بقوله: «إشراب كلمة معنى كلمة، لتفيد معنيين أحدهما بلفظها، والآخر بتعديتها بحرف مناسب للفعل المضمّن»[14]

وإزاء هذه التعاريف يمكن القول بأن القدماء والمحدثين لم يتفقوا على تحديد المصطلح تحديدًا دقيقا، يمكن أن يعوّل عليه، وإن تفاوتت هذه التعاريف في درجة دقتها وشموليتها، ولعلّ تعريف الطاهر ابن عاشور للتضمين الآتي - الذكر - يبقى في رأينا من أدق التعاريف السابقة كلها إذ يقول: « التضمين أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر، ويشار إلى المعنى المضمّن بذكر ماهو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان» ، فهو بهذا التعريف يكون قد استدراك على سابقيه من خلال شموليته لجميع أقسام التضمين من جهة، وأغراضه من جهة أخرى.

<u>ثانيا</u>: صوره

من خلال تتبعنا للتضمين النحوي، وجدنا أنّه يرد على عدّة صوّر، فيكون بين فعلين، وبين الأسماء والأفعال، وبين أسماء الأفعال والحروف وغير ذلك، وسنحاول الوقوف على أهمّ وأشهر هذه الصور مع التمثيل لكل صورة.

1- **<u>التضمين بين فعلين</u>:** بحيث يرتبط التضمين ارتباطاً وثيقًا بتقسيم الأفعال من حيث اللزوم والتعدي إلى مفعول واحد أو اثنين أو ثلاثة.

ويعدّ التضمين طريقة من الطرق التي تجعل الفعل اللازم متعديا، أو المتعدي لازمًا، وكأنّ الأفعال بذلك: «تكسب قوة دلالية تصبح بها قادرة على أن تنصب

مفعولاً به أو أكثر، كما يحدث العكس أيضا بطريق التضمين الذي يسلب الفعل المتعدي إلى اثنين قدرته على نصب مفعولين، فيجعله متعديا إلى واحد فقط»[16]

وتقسيم الفعل إلى لازم ومتعد من أهم التقسيمات التي ذكرها النحويون العرب القدامى، ويشير "تشومسكي" إلى تقسيم آخر يقابل هذا التقسيم، وذلك بالنظر إلى عدد المركّبات الإسمية التي ترتبط الأفعال بها فيما يسمّى نواة الجملة، وفيما يلي بعض الأمثلة.

أ- **تضمين فعل لازم دلالة فعل متعد**: وذلك بأن يكون الفعل لازما أصالة، لكنه يصبح متعديا نحو قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ** ﴾[17]، فقد تضمّن الفعل (استبق) معنى (ابتدر) فتعدّى تعديته، وفي قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾ [18]، تضمّن الفعل (سفه) معنى (أهلك)، وفي قوله تعالى:" ﴿ **وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾[19]، تضمّن الفعل (قعد) معنى (لزم).

فهذه الأفعال انتقلت إلى دائرة الأفعال المتعدية إلى مفعول واحد بنفسه، فالفعل (قعد) اكتسب قوّة بعدما كان قاصرًا، لاشك تقول: «قعد الرجلُ»، ولايحتاج الفعل إلى فضله، وأصبح له فضله بعد التضمين.

ب- تضمين فعل متعد دلالة فعل لازم: وذلك كأن يكون الفعل يتعدّى إلى مفعول أو مفعولين أو ثلاثة مفعولات، فيصبح متعديا بحرف الجرّ نحو قوله تعالى: ﴿ **يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** ﴾ [20] بحيث تضمّن الفعل (يخالف) معنى (حاد)، وقوله تعالى أيضا: ﴿ **وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي** ﴾[21]، تضمّن الفعل (أصلح) معنى (بارك).

كما يندرج تحت هذا القسم أيضا تضمين فعل متعد إلى مفعولين بنفسه دلالة فعل متعد إلى مفعول واحد بحرف جرٍّ، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾[22]، فالفعل (ظلم) يتعدّى أصاله إلى مفعولين بنفسه، فنقول ظلمه حقّه، أمّا في هذه الآية فإنه لمّا تضمّن معنى (كفر) أو (كذّب) تعدّى بحرف الجر (الباء)، كما يمكن تضمين فعل متعدّ إلى مفعول واحد دلالة فعل متعدّ بالحرف، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا** ﴾ [23] ، فقد تضمن الفعل (**ارْكَبُوا**) دلالة الفعل (دخلوا) فعدّي مثله، فكل الأفعال المدرجة ضمن هذا النمط كما هو ملاحظ تسلب الفعل قوّته.

2- **تضمين العبارات دلالة الأفعال**: وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى** ﴾ [24]، (هل لك) تصحبها (في) لكن لمّا كان المعنى: (ادعو) مكان التقدير: أدعوك وأرشدك إلى أن تزكى[25]

والاستخدام اللغوي بين (هل لك في كذا) تأتي بمعنى (أدعو)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [26]، فالتركيب (يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) عبارة ضمنت دلالة الفعل (يندم) في الاستعمال العربي، ولذا عديّ فعلها بـ (على) [27] والعلاقة بين الجملة والفعل هي علاقة كناية.

3- **تضمين الاداة دلالة الفعل:** فقد أجاز الفراء وقوع (ليت) موقع (تمنى) وكانت هذه علّة كون (ليت) أقوى أدوات النصب، واستشهد على ذلك بقول الشاعر: يا ليت أيام الصبا رواجعا[28]، فنصبت مفعولين لتضمنها معنى «أتمنّى».

4- **تضمين الأسماء دلالة الحروف:** وقد كان هذا التضمين علة بناءها، وقد ذهب إلى هذا ابن جنّي حيث قال « فإن قيل فمن أين وجب بناء هذه الأسماء؟ فصواب القول في ذلك أنّ علّة بنائها إنّما هي تضمّنها معنى لام الأمر، ألا ترى أنّ (صه) بمعنى (اسكت)، وأنّ أصل (اسكت) لتسكت، كما أنّ أصل قم، لتقم، فلمّا ضمنت هذه الأسماء معنى لام الأمر، شابهت الحرف فبنيت [29] كما أن (كيف)، و(من)، و(كم) لما تضمّن كل واحد منها معنى حرف الاستفهام بنيّ، يقول الأنباري: « وأمّا (أين) و(كيف) فإنما بنيا على الفتح لأنها تضمنا معنى حرف الاستفهام، لأن (أين) سؤال عن المكان، و(كيف) سؤال عن الحال، فلمّا تضمّن معنى حرف الاستفهام وجب أن يبنيا»[30]

5- **التضمين بين الأسماء:** نحوو قوله تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[31]، ضمّن (عاكفون) دلالة (عابدين) أو (ملازمين)، ولذا عديا باللازم، وكل منهما اسم فاعل.

وقد يكون الأمر متضمنا معنى المضارع كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ﴾ [32]، فظاهر الآية يوحى بأنّه قد عطف الإنشاء (وقولوا) على الخبر (لاتعبدون)، وقد وقع الخلاف بين النحويين في مثل هذا العطف، فمنعه قوم ومنهم ابن مالك وابن عصفور، وأجازه آخرون[33]، وذكر السمين الحلبي أنّه إنّما جاز هذا العطف في الآية لأن الكلام محمول على المعنى، لأنّ قوله (لا نعبدون) محمول على النهي، والتقدير: ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالوَالِدَيْنِ﴾ [34]، فهذا أمرٌ عبر منه بصيغة الخبر، لأن «مجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر، لأنّ الخبر مستعمل في غير معناه، لعلاقة مشابهة الأمر الموشوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنّه يخبر عنه»[35]

ومن صوّر التضمين أيضا أن يتضمّن فعل في زمن معين معنى فعل في زمن آخر غير الأوّل، ففي قوله تعالى: ﭽ**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ**ﭼ [36]، جاء الماضي بمعنى المضارع أي: «مالكم تتثاقلون»[37]، وقال أبو حيان الأندلسي: «هو ماض بمعنى المضارع، وهو في موضع الحال»[38]، وقال ابن عاشور: « اثاقلتهم ماضي اللفظ مضارع المعنى، أي: تتثاقلون»[39]

كما قديرد المضارع بمعنى الأمر، ففي قوله تعالى: ﭽ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنَجِيكُمْ مِنَ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**ﭼ[40]، فقد ذكر الزجاج أنّ الفعلين (يغفر) و (يدخلكم) جزما لأنهما واقعان في جواب الأمر والتقدير: أمنوا بالله ورسوله، وجاهدو في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم يغفر لكم ذنوبكم، إنّي إن فعلتم ذلك يغفر لكم، وقال: « والدليل على ذلك قراءة عبد الله بن مسعود آمنوا بالله ورسوله، كما ردّ من جعل سبب جزم الفعل (يغفر) بأنه جواب استفهام »[41]

فصور التضمين كثيرة في اللغة العربية، هذا ما جعله يشغل حيزاً كبير من الدرس النحوي، ولسنا بحاجة في هذا البحث - إلى الإطالة في تعداد هذه الصور والأنماط -

ثالثا: أغراضه

يعدّ التضمين من أهم المظاهر التي تجسيد الصلة الوثيقة بين الدلالة وعلم النحو، بل إنّ التضمين يعلن أن النحو تبع للدلالة، وأنّ المكوّن الدلالي هو الأسبق في الوجود ثم يتلوه المكوّن النحوي، ثم إنّه يجسد عملية ذهبية تعطينا بعض المؤشرات الدالة على أنّ اللغة ذات طبيعة بيولوجية وثيقة الصلة بعمل الدماغ، والذهب الإنساني.

وبصرف النظر عمّا إذا كان النحو هو المكوّن الخلاف في القواعد، ينفذ الخطوة الأولى ثم يأتي المعنى والصوت لينفذ الخطوات التالية، أو كان المكوّن الدلالي هو الجزء الخلاق في القواعد، وأنّ الشرارة الأولى تنطلق منه، فإنّ التضمين يشكل نقطة التقاء، وتفاعل وتأثير بين الدلالة والنحو.

ومن هنا فإننا حاولنا في هذا البحث – إبراز أهمية هذه الظاهرة، ومكانتها في الدرس اللغوي – فالتضمين من أنزه الفصول في العربية، فإذا تأملته عرفت منه وبه ما الحروف المعاني من أسرار يكشفها لك، وهو وسيلة من الوسائل المحفزة لشحذ الذهن للوصول إلى أفق فكري ولغوي جديدين في إضافة معنى آخر لتحليل النصوص والتراكيب بتقوية المعنى، بما يسهم في إضفاء صورة ورؤية جديدين باتجاه قراءة أخرى في ضوء المعاني النحوية المستقاة من التضمين، وهو بهذا مورد من موارد التأنّق في الأسلوب، ومن عجيب أمره أنّه يتسم بكونه دالاً على «الإيجاز والزيادة معًا»[42]

فالإيجاز يظهر في أنّ فعلاً واحدًا يدل على معنيين، أولهما بحقيقة لفظه، وثانيهمابذكر شيء من متعلقاته، والزيادة تظهر في كون الفعل يتعدّى بحرفين مختلفين، ومع كل حرف له معنى فقولك مثلا: «رغب في» تختلف عن قولك: «رغبت عن» و (خلا به) تختلف عن (خلا إليه).

ويبين الزمخشري هذه الفائدة من خلال توجيه لقوله تعالى: **ﭽوَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْﭼ**[43] بقوله: يقال: عداه إذا جاوزه، ومنه قولهم: عدا طوره ......، وإنّما عديّ بـ (عن) لتضمنين (عدا) معنى (نبا) و(علا) في قولك: نبت عنه عينه، وعلت عينه عينه، وإذا اقتحمته، ولم تعلق به، فإن قلت: أيّ غرض في هذا التضمين؟ وهلا قيل: ولا تعدهم عيناك، أو لا تعل عيناك منهم قلت: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: **ﭽوَلاَ تَقْتَحِمْ عَيْنَاكَ مُجَاوِزِينَ إِلَى غَيْرِهِمْ ﭼ**[44]

قولك:« ولا تقتحم عيناك مجاوزين إلى غيرهم»

ومن ذلك قوله تعالى: **ﭽوَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا ﭼ**[45] فـ (نصرناهم) بمعنى (نجيناه منهم) أو منعناهم منهم، قال تعالى: **ﭽوَيَا قَوْمِ مِنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدتُّهُم ﭼ**[46] فليس قولك: من ينصرني على الله؟ بل من ينجيني ويمنعني منه؟ والفرق بين نجيناه من القوم، ونصرناه من القوم إن التنجية منهم، ولم يذكر بأنك تعرضت للآخرين شيء، كما تقول (أنجيته من الغرق)، ولا تقول:(نصرته من الغرق)، لأن الغرق ليس شيئا ينتصف منه، أما النصر ففيه جانيان في الغالب، جانب الناجي، وجانب الذي نجي منهم فعندما تقول (نصرتك منهم) كان المعنى أنك نجيته وعاقبت أولئك، أو أخذت له حقه منهم.[47]

فالمعنى الثاني لا يأتي مصرحا بذكره، مكشوفا عن وجهه، بل مدلولا عليه بغيره، ويتضح بالإيماء دون الإفصاح، وذلك أفضل من التصريح وليس هذا فحسب، فقد يحمل القول المتضمن جملة من المعاني، التي ما كان أن يحملها لولا التضمين، ومن أجل هذا نقف عند قوله تعالى: چ**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم** چ[48]

ونحاول أن نستشف المعاني التي يحملها الفعل (هدى) بطريق التضمين، فقد جاء الفعل (هدى) متعديا إلى مفعولين بنفسه، وأصل (هدى) أن يتعدى الأول بنفسه، وإلى الثاني بحرف الجر، وهذا إما (إلى)، أو (اللام) نحو قوله تعالى: چ**فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**چ[49]، وقوله: چ**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا**چ[50]، وقد يتعدى إلى المفعول الثاني بنفسه كما هنا على تضمنه معنى (عرف)، قيل هي لغة أصل الحجاز أما غيرهم فلا يعديه بنفسه، وقد جعلوا تعديته بنفسه من التوسع المعبر عنه بالحذف والإيصال، وقيل: الفرق بين المتعدي وغيره أم المتعدي يستعمل في الهداية لمن كان في الطريق ونحوه ليزداد هدى، ومصدره حينئذ الهداية، وأما (هدله إلى كذا) و(لكذا) فيستعمل لمن لم يكن سائرا في الطريق ومصدره هدى[51].

إلا أن هذا القول ليس سديداً، فقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام قائلا لأبيه: چ**فَاتَبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**چ[52] وأنه ليس في الصراط بل هو بعيد عنه، وقوله تعالى: چ**وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**چ[53].

والمنافقون ليسوا على الصراط، ويذهب الدكتور فاضل السامرائي إلى أن:« تعدية الفعل (هدى) من دون حرف تقال لمن يكون فيه، ولمن لا يكون فيه أما التعدية باللام، و(إلى) فتكون لم يكن فيه»[54] أي:« الصراط».

فعلى هذا يكون (هداه الطريق) بمعنى عرفه الطريق، أي أن الفعل (هدى) تضمن معنى (عرف)، و(هداه إلى الطريق وللطريق) يتضمن معنى (أرشد)، ويقال: (هداه للطريق) بمعنى بين له أيضا.

ويبدو أن الهداية مراتب كما قال ابن قيم الجوزية:« فالبعيد الضال عن الطريق يحتاج إلى هاد يدله على طريق، ويوصله إليه، فهنا نستعمل (يهدي إلى) والذي يصل إلى الطريق يحتاج إلى هاد يعرفه بأحوال الطريق ومراحلها وما فيها من مخاوف وأماكن الهلكة والأمن، ويعرفه بما يحتاجه السالك في هذه الطريق، وهنا نستعمل (هذه الطريق)، أما اللام فإنما تستعمل في اللغة للتعلل، أي: لبيان الغاية من الحدث، وقد تستعمل لانتهاء الغاية[55].

والإنسان محتاج إلى هذه الهدايات كلها، فإن ضل احتاج من يهديه إلى الطريق، وإن وصل احتاج من يعرفه إلى الطريق، وإن سلك احتاج الوصول إلى الهدف، وألا ينقطع في الطريق، وإن قطع الطريق احتاج إلى من يبلغه غايته وأن ينيله مرامه ويهديه له»[56].

ونعود إلى قوله تعالى: چ**اَهْدِينَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ**چ، فقد عدي فعل الهداية بنفسه، ولم يعده بالحرف، وذلك ليجمع عدة معان في آن واحد، ذلك أن التعدية من دون حرف تقال لمن يكون فيه ولمن لا يكون فيه كما فصل آنفا، فهنا نطلب الهداية لمن كان في الطريق فيعرفه به، ويبصره بشأنه، ولمن ضل وانحرف من المؤمنين عن الجادة فيرده إلى الجادة، فشل القسمين، ولما كان هؤلاء من الموحدين الحامدين لله، كان المعنى علاوة على ما مر، طلب استمرار الهداية على الطريق المستقيم، والتثبيت على الهدى، والزيادة فيه» [57]

فيكون معنى: چ**اَهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ**چ، عرفنا الطريق الحق، وردنا إليه ردا جميلا إذا ما ضللنا وانحرفنا، وثبتنا على الهدى، وزدنا هدى.

فانظر إلى المعاني المجتمعة التي حصلناها بالتضمين بطريق موجز مختصر، وانظر إلى قوله تعالى: چ **وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**چ [58] كيف أن الفعل (أخبت) يتضمن الإنابة إلى الله، والتضرع إليه، والخضوع والتواضع له، ولذلك العز بن عبد السلام هذه الآية بقوله:«أخبتوا: خافوا أو أطمأنوا أو أنابوا أو خشعوا أو تواضعوا أو أخلصوا»[59]

ويشير ابن هشام إلى هذا الغرض بقوله:« وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين»[60] وهو نوع من التوسع، يسهم في نمو اللغة، وتغير مفرداتها وتراكيبها، ومن أمثلة ذلك قولك: (وهبته مالا) فقد منع اللغويون (وهب) إلى الأول بنفسه، لكنه ورد في لغة الفقهاء معدى إلى الاثنين بنفسه، و« يمكن قبوله على تضمين (وهب) معنى (جعل)»[61]. وقولك: (قَبِلَ الأَمْر) بمعنى وافق عليه، وقد أجاز المجمع اللغوي بالقاهرة هذا الأسلوب بهذا المعنى على تضمين (قبل) معنى (رضي) فعداه بالباء، فصار (قبل) هنا بمعنى (رضي)، ولم يعرف العرب هذا الأسلوب، وسبب التغير هنا هو العلاقة المجازية بين القبول والرضا، فالرضا سبب القبول.[62]

فعن طريق التضمين يتوسع استخدام الأفعال، وربما أدت هذه الأفعال معنى جديدا لم يعهده العرب قديما، وهذا من قبيل التطور الدلالي، وقد أجرى الأستاذ فريد عوض حيدر دراسة على هذا التغير الدلالي على جريدة الأهرام

المصرية، باعتبارها أكثر الصحف انتشارا، وأكثرها قراءة، ومنها المادة (رسخ) التي كانت تدل على الثبات، ويستخدم الفعل (رسخ) لازما وقد استخدمت الجريدة الفعل (رسخ) لدلالة على التكثير والتعدية، وهو اشتقاق جديد في هذه المادة بمعنى التقوية والتدعيم [63]، فقد انتقل الفعل من (رسخ) اللازم إلى (رسخ) المتعدي، وجاء منه المصدر (ترسيخ) فيقال: «تعمل الدول على ترسيخ أسس التعاون المشترك»، إذ المعنى الجديد مستمد من الدلالة العامة للمادة، غير أن السياق أضاف إليه معنى، جاء بالانتقال الدلالة من التثبيت والتقوية لوجود علاقة السببية، إذ التثبيت سبب في التقوية، والفعل (أدلى) في قولنا: «الرئيس يدلي بحديث .....» أي: يصرح، بينما كان معناه «يدل على مقاربة على مقاربة شيء ومداناته بسهولة ورفق، يقال: أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر»[64].

وخلاصة الأمر التضمين ضرب من ضروب التوسع في اللغة العربية وهذا ما زاد ثراء، وجعلها تستطيع مواكبة العصر، وأكسبها ثروة ونماء.

ولقد تفطن ابن جني لهذا الأمر منذ قرون ما جعله يقول: « إن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه، إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، ولذلك جيء به معه، بالحرف المعتاد على ما هو في معناه »[65] ، « وعد هذا فصلا من العربية لطيفا، حسنا يدعو إلى الأنس به والفقاهة فيه »[66].

كما أن التضمين يؤتى به أيضا لحل مشكلة تعدي ما لا يتعدى من الأفعال ذلك بتضمينه فعلا من الأفعال المتعدية القريبة من معناه، أو مجيء المتعدي لازما، يقول الدكتور تمام حسان في هذا الصدد: «أما التضمين فكثير ما يكون وسيلة يستعملها النحوي لحل أشكال الأصل، كأن يكون في الجملة فعل لازم انتصب بعده المفعول، فيضمن معنى المتعدي، أو متعد لم يصل إلى المفعول إلا بوسطة فيضمن معنى المتعدى، أو حرف استعمل في مكان حرف آخر، فيقول النحوي بتضمينه معناه» [67] بحيث يفهم من كلامه أن النحويين قالوا به كوسيلة من وسائل التعليل والتأويل حين عجزوا عن تعليل مجيء المتعدي لازما، واللازم متعديا، وقد انتقد بعض الدراسين النحاة لسولكهم هذا المسلك، وعدوه مأخذا واستدلوا به على إنكار التضمن.

ويقول الأستاذ عبد الجبار فتحي زيدان: « فالغرض من التضمين إذن جاء لحل مشكلة تعدي ما يتعدى من الأفعال .....وهذا هو المأخذ الأول من التضمين، وهو أن النحاة قالوا به لحل مشكلة لفظية».[68]

وإلى هذا يميل الأستاذ الصادق خليفة راشد حيث يقول: « وإنما الغرض الأساسي من وجود هذه الظاهرة هو محاولة تأويل هذه التراكيب اللغوية التي يرى النحويون أنها متعارضة مع القواعد اللغوية»[69]

ومهما يكن من أمر فإن للتضمين أهمية لا تنكر، وأغراض لا ينبغي أن تغفل حتى وإن كان النحاة قد وظفوه من أجل تعليل الحكم الإعرابي، وربما اتخذوه وسيلة تأويلية بالغوا في التعامل مع هذه الظاهرة أحيانا كما فعل الزمخشري مع قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ** ﴾[70] التي وردت فيها قراءة شاذة برفع لفظ الجلالة، ونصب (العلماء)، والتمس لها تخريجا بطريق التضمين قائلا: « فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ» إنما يخشى الله» بالرفع من عباده العلماء بالنصب، وهو عمر بن عبد العزيز ويحكي عن أبي حنيفة قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى إنما يجلهم، ويعظهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس من بين جميع عباده» [71]

أما أن نحمل الخشية على الخوف فهذا مستحيل هنا، فقد ضمن الفعل (يخشى) نعتى (يجل) و(يعظم)، وذلك من أجل حل المشكلة المترتبة عن هذه القراءة، إذ لا يخفى على الدارسين ما فيها من التكلف، ولكن في رأي يبقى اجتهاد، بما أن القراءة واردة فعلى النحوي أن يتأول ويعلل.

كما أنه لا يمكن أن يجرد التضمين من أهمية لمجرد توجيه آية، ثم إن حرص النحاة على التعليل أمر غير مبنوذ، ولا يمكن أن نهدم ما بنوه، فربما دل هذا على الدقة، وحرصا منهم على تعليل الأمور، وعدم تركها معلقة من غير دليل ولا توجيه، وخاصة في أثناء توجيه الآيات القرآنية حالة ثبوت القراءة، فلابد أن نلتمس لها تخريجا أو تأويلا.

والتضمين هو طريقة من هذه الطرق، بحيث يتعذر علينا، أو يصعب تفسير بعض الآيات من غير هذا الطريق، وإلا فكيف نفسر قوله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ** ﴾[72] بنصب (آدم) ورفع (كلمات)؟!

يقول ابن خالويه « تقرأ برفع (آدم) ونصب (كلمات)، وبنصب (آدم) ورفع (كلمات) فالحجة لمن رفع أن الله تعالى لما علم آدم الكلمات فأمره بها تلقاهن بالقبول منه»، وأما القراءة الثانية فإنه لا يمكن أن يحمل معها الفعل (تلقى) على مؤاده وهو التلقي، لأن الكلمات لا يتصور منها التلقي، وإنما تكون على تضمين (تلقى) معنى

(جاء) ليكون المعنى، جاءت آدم كلمات [73]، فمن فوائد التضمين أنه يساعد على تفسير بعض الآيات القرآنية.

فالتضمين إذن يد في إبراز المعاني الخفية، وإكساب اللغة دلالات إضافية، وهو مظهر من مظاهر التوسع في اللغة، وضرب من ضروب الإيجاز الذي يعد من أهم خصائص هذه اللغة الشريفة، فإن العربي يميل إلى الاختصار، وهو به أعنى، وفيه أرغب».

وهو وسيلة من وسائل التعليل والتوجيه الإعرابي، أضف إلى هذا أن إهمال التضمين سيؤدي إلى بعض التأويلات كزيادة بعض الحروف، وإنه -في رأيي -أولى وأجود، وخاصة في القرآن الكريم، لأن التضمين أسلوب بياني، الكلمة بواسطته تفيد معنى آخر منسجما مع الأول، مكملا له، وليس بين المعنيين تنافر ولا اختلاف.

<u>الهوامش</u>

(1) محمد عبد السلام هارون، الكتاب، سيبويه، دار الجيل، بيروت لبنان، ط1: دت، ج1، ص: 33.

(2) المبّرد ، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ج4، ص: 338.

(3) سورة البقرة، الآية- 187.

(4) ابن جنيّ، تحقيق: محمد علي النجّار، الخصائص، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1: 1427هـ/ 2006 م، ص:510

(5) الشريف الجرجاني، حاشية الجرجاني على الكشاف,عالم المعرفة,بيروت ,دط,دت,ج1ص:92.

(6) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2009م، ج2، ص: 341.

(7) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار ابن الجوزي بالقاهرة، ط1: 2013م، ص: 308.

(8) ينظر: للسيوطي جلال الدين، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب بيروت، دت، ج1، ص: 469.

(9) محمد الصبان، حاشية الصبّان علي الشموني، ضبط وتصحيح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1417 هـ/ 1997م، ج2،

ص: 138.

(10) إبراهيم السامرائي، فقه اللغة المقارن، دار العلم للملايين، ط3: 1983، ص:218.

(11) علي أكبر بن محمود، التحفة النظامية في الفروق الاصطلاحية، دار المعارف النظامية حيدر آباد، ط2: 1430 هـ ، ص: 47.

(12) ابن كمال باشا، رسالة في التضمين، دار الكتب المصرية، دت، ص 323.

(13) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مبحث التضمين، بولاق، المطبعة الأميرية، رجب 1353 هـ / أكتوبر 1934م، ج1، ص: 180.

(14) علي أكبر بن محمود، التحفة النظامية في الفروق الاصطلاحية، ص: 47.

(15) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دط: 1997: ج1، ص: 123.

(16) فريد عوض حيدر، فصول في علم اللغة، مكتبة الآداب بالقاهرة، ط3: 2011م، ص: 08.

(17) سورة يس، الآية 66.

(18) سورة البقرة، الآية 130.

(19) سورة التوبة، الآية 05.

(20) سورة النور، الآية 06.

(21) سورة الأحقاف، الآية 15.

(22) سورة الأعراف، الآية 103.

(23) سورة هود، الآية 41.

(24) سورة النازعات، الآية 18.

(25) ابن جنّي، الخصائص، ص: 511.

(26) سورة الكهف، الآية 42.

(27) نعمة الله بن محمود النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبيّة، دار ركابي للنشر، مصر، ط1: 1419 هـ/ 1999م: ج1، ص: 481.

(28) السيوطي، همع الهوامع، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1: 1327 هـ، ج1، ص:134.

(29) ابن جنّي، الخصائص، ص: 665.

(30) الأنباري، أسرار العربية، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب

العلمية، بيروت، لبنان، ط2: 2010م، ص: 38.

(31) سورة الأنبياء، الآية 52.

(32) سورة البقرة، الآية 83.

(33) الاشموني، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ,تح :اميل بديع يعقوب,دار الكتب العلمية,بيروت ج3 ص297

(34) السمين الحلبي، الدر المصون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، دت: ج1، ص: 460.

(35) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص: 582.

(36) سورة التوبة، الآية 38.

(37) أبو البقاء العكبري، إملاء مامن به الرحمان، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط1: 1423 هـ/ 2002 م,ص 271.

(38) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر، دت، ج5، ص: 33.

(39) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص: 195.

(40) سورة الصف، الآيات 10 – 11 – 12.

(41) ينظر: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج5، ص: 166.

(42) السهيلي، نتائج الفكر، تحقيق: الشيخ عادل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص: 352.

(43) سورة الكهف، الآية 28.

(44) الزمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي، ط3: 1407 هـ، ج2، ص: 717.

(45) سورة الأنبياء، الآية 77.

(46) سورة هود، الآية 30.

(47) فاضل السامرائي، معاني النحو، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1: 1420هـ/ 2000م، ج3 ص:13,12

(48) سورة الفاتحة، الآية 06.

(49) سورة الصافات، الآية 23.

(50) سورة الأعراف، الآية 43.

(51) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد,تح:سيد عمران وعامر صلاح,دار الحديث بالقاهرة,سنة 2006م-ج2ص268

(52) سورة مريم، الآية 53.

(53) سورة النساء، الآية 67.

(54) فاضل السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار للنشر، عمان، الأردن، ط9: 1435 هـ / 2015 م، ص: 46.

(55) المرجع نفسه، ص: 47 – 48.

(56) المرجع نفسه، ص: 48.

(57) المرجع نفسه، ص: 50 – 51.

(58) سورة هود، الآية 23.

(59) العز بن عبد السلام، التفسير، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهي، دار ابن حزم، بيروت، ط1: 1416 هـ/ 1996م، ج2، ص: 86.

(60) ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2009م، ج2، ص: 341.

(61) الفيومي، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، دط، دت، ج2، ص: 674.

(62) فريد عوض حيدر، فضول في علم الدلالة، ص: 16.

(63) المرجع نفسه، ص: 193 – 194.

(64) أحمد بن فارس، مقايس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط: 1399هـ، 1979م، ج2، ص: 293.

(65) ابن جنيّ، الخصائص، ص: 510.

(66) المصدر نفسه، ص: 517، بتصرف.

(67) تمام حسان، الأصول، دار الثقافة بالدار البيضاء,ط1982:1,ص:165.

(68) عبد الجبار فتحي زيدان، التضمين في القرآن الكريم، ص: 226.

(69) الصادق خليفة راشد، دور الحرف في أداء معنى الكلمة، ص: 261 - 262.

(70) سورة فاطر، الآية 28.

(71) الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 611.

(72) سورة البقرة، الآية 37.

(73) ابن خالويه، الحجّة للقراء السبعة، تحقيق وشرح: عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط4: 1401 هـ، ص: 75.